جدلية السلطة واليوتوبيا في قصيدة جمهورية البرتقال للشاعر ابراهيم الخياط

Dialectics of authority and Utopia in Ibrahim Al-kayat poem the orange republic

د . محمود خليف خضير الحياني .
(الجامعة التقنيَّة الشَّماليَّة - العراق)

الملخَّص :

يحاول كل شاعر أن يحقق مدينته المثالية في المجتمع ولقد مارست السلطة في المقابل دورا في تهميش وإقصاء اليوتوبيا عن طريق تحويلها إلى شيء مستحيل غير قابل للتحقيق مرتبط بالإمكان مما عمل هذا التحديد الامكاني والمثالي على أن يكون تجسد اليوتوبيا جوهرا متشتتا ومبعثرا في الاحلام والقصص الاجتماعية غير مترابطة القائمة على فكرة اللا توافق مع الواقع ، ولكن هذا المثالية يمكن أن تعدّ ايجابية لليوتوبيا القائمة على الحرية ومعارضة الايديولوجيا وسلطتها الغاشمة .، ولعل الخصوصية الشعرية لليوتوبيا التي تشكلت في نصوص إبراهيم الخياط أبعدته عن فكرة الاستنساخ وإعادة التجربة لكون عالم إبراهيم الخياط اليوتوبية عالما شعريا خياليا لا وجود له إلا في أحلامه الشعرية التي بحثت عن الواقع المثالي والخيالي الذي يحقق الأمل والمستقبل الزاهي المحمل بالنزعة التفاؤلية به وهذا ما وجدنه في قصيدة (جمهورية البرتقال) للشاعر براهيم الخياط.

كلمات المفاتيح : المفارقة ، اليوتوبيا ، السلطة ، الايديولوجية .

Research Summary:

Every poet tries to achieve his ideal city in society, and power has played a role in marginalizing and excluding utopia by transforming it into an impossible, unattainable, and linked to the possibility, which made this possible and ideal determination that utopia embody a dispersed and dispersed essence in dreams and incoherent social stories based on the idea It is incompatible with reality, but this idealism can be considered positive for a utopia based on freedom and opposition to ideology and its brute power. Ibrahim Al-Khayyat is a fictional poetic scholar who does not exist except in his poetic dreams, which searched for the ideal and fictional reality that achieves hope and a bright future loaded with optimism, and this is what we found in the poem (Republic of Orange) by the poet Ibrahim Al-Khayyat. Keywords: The paradox, utopia, power, ideology.

السلطة والإيديولوجية

ثمة ضبابية تاريخية و مفهومية تخص مصطلح الإيديولوجية فتاريخ ميلاد هذا المفهوم ينتابه الاضطراب والتداخل فمن جهة جيناته تعود إلى العصر اليوناني و الروماني و عصر النهضة وعصر الحداثة . ولكن أكثر مؤرخي المفهوم يعودون بأصل المفهوم ونشأته إلى الصراع الفكري والاعتقادي في القرن الثامن عشر إذ ترتبط ولادة هذا المفهوم بعقل الحداثة.

فقد فهمت الإيديولوجية في هذا العصر على أساس أنها علم الأفكار وبوصفها سلاحا نقديا وهي مفاهيم مؤسسة على العقل والعلم الذين هما سلاح مجتمع الحداثة ضد الإقطاع والاستقراط والأفكار الدينية والميتافيزيقية والخرافة . فثمة ارتباط بين العقل والمفهوم النقدي للايدولوجيا الناقدة لكل مضاد للمجتمع العقلاني [1].

ولكن مع تطور المجتمع وظهور التناقضات في النظام الرأسمالي والاجتماعي حدثت حالة من التشابك والتداخل في مفهوم الإيديولوجية بين الأبعاد السلبية والايجابية للجانبي المثالي والتجريبي للمفهوم (الإيديولوجية) فمن التأمل الفلسفي والمعرفي إلى الاجتماعي لكي يستقر عند نابليون على أساس فحوى سياسي وعقائدي، إذ إن الانقلاب النابليوني للمفهوم استعمل في مهاجمة المدافعين عن قيم التنوير ولاسيما الديمقراطية. لأنهم انتقدوا الامبرطورية النابليونية[2].

وعلى الرغم من هذا التقاطع بين المفهوم المعرفي والاجتماعي والسياسي للمفهوم فإنه تداخل مع مفهوم السلطة واطر الحكم لكي يدجن الواقع ويحوله إلى حالة شاذة ومزيفة ، ولقد وصف بول ريكور الإيديولوجية من خلال علاقتها باليوتوبيا على أساس أنها ديناميكية خيال ثقافي تعبر عن موقفين شاذين تجاه الواقع الاجتماعي وعدّها معيارا لعدم الانسجام رابطها بالهوية الجماعية من خلال تمظهراتها الأخلاقية والسياسية إذ يفرض عليها انتقالا تأويلا في مجال الفلسفة السياسية ونظرية العدالة ،إذ يرى ريكور في أن مقولتي الايدولوجيا واليوتوبيا لها تفسيرين شائعين للايدولوجيا التفسير الأول: لماركس الذي يرى أن الايدولوجيا هي نوع من الوعي الزائف الذي يهدف إلى تبرير الوضع القائم ، والتفسير الثاني لماكس فيبر يرى أن وظيفة الايدولوجيا هي إضفاء الشرعية على النظام السياسي ، إما ريكور فيشير إلى أن للايدولوجيا وظيفة في تحقيق الهوية والكيان الجماعي فهي تضفي الوحدة على سلوك الأفراد لمجتمع معين غير أن ريكور في التفاته للجانب الايجابي للايدولوجيا يربطه بالجانب الايجابي لليوتوبيا في مجتمع معين ،فإذا كانت سمة الايدولوجيا هي الحفاظ على الجماعة فإن طرح هذه الجماعة ليوتوبيا جديدة تساعد على اكتشاف الممكن ، وهكذا كشف في الايدولوجيا واليوتوبيا والعلاقة الجدلية بينهما

[1] . الايديولوجيا والهوية الثقافية ، جورج لارين ، ترجمة فريال حسن خليفية: 16 . 23 ، ومفاتيح اصطلاحية جديدة : 133 . 135 .

[2] . الايديولوجيا والمعرفية ، بكري خليل : 103 . 116 ، عصر الايديولوجيا ، هنري ايكن ، محي الدين صبحي : 9 . 15 .

عن وجهي الخيال الضامن لوحدة الجماعة في المحافظة على القديم والابتكار و التطور[3] الذي يمثل ديناميكية المجتمع وطموحاته.

المبحث الثاني

السلطة واليوتوبيا

يحاول كل شاعر أن يحقق مدينته المثالية في المجتمع وتعود فكرة المدينة اليوتوبية إلى الوضع المضطرب الذي عرفته أثينا التي دفعت أفلاطون إلى كتابة جمهوريته ، وبعده أتت (مدينة الله) عند أوغسطين ، وبعدها كانت (اليوتوبيا) التي اشتهر بها المفكر توماس مور ، إذ صاغ كلمة يوتوبيا من كلمتين يونانيتين هما UO معناها (لا) وtopos ومعناها مكان. بحيث تعني الكلمتان اللامكان أو الطيب ، وتلت اليوتوبيا (اطلانطا الجديدة) عند فرانسيس بيكون ، و(مدينة الشمس) عند الشاعر الايطالي توماس كامبانيللا[4] ، ولم تقتصر اليوتوبيا على الشعراء والفلاسفة والمبدعين إنما توسعت لكي تعبر عن أحلام الشعوب والمجتمعات، ولاسيما بعد أن دخلت في علاقة جدلية ومتشابكة مع مفهوم الايدولوجيا (علم الأفكار) الذي ظهر وبرز في عصر التنوير مرتبطا بالعقل ليمثل تقنية تؤمن بالعقل وتثق به فضلا عن كونها سلاحا نقديا للدفاع عن العقل الاداتي وعصر الأنور ونقد كل الأفكار غير التقدمية كالأفكار اللامعقولة والميتافيزيقية والدينية[5] . ويمكن أن تكون أفضل نقطة انطلاق لمناقشة مسألة اليوتوبيا هي انعدام التوازن بين الايديولوجيا واليوتوبيا، إذ إن فعل اليوتوبيا يمثل حقلا أدبيا مرتبط بجوهرها الذي يدل على صنف معلن ومكتوب ومكشوف وواضح يتحدد دائما بأصحاب يوتوبيات متنوعة مثل سان سيمون واوين وغيرهما مما أضفى على العمل اليوتوبي التحديد الشخصي والاسمي مما فرقه عن الايديولوجيا التي لا ترتبط ولا تتحدد بأسماء خاصة ، ولقد مارست السلطة دورا في تهميش وإقصاء اليوتوبيا عن طريق تحويلها إلى شيء مستحيل غير قابل للتحقيق مرتبط بالإمكان مما عمل هذا التحديد الامكاني والمثالي على أن تجسد اليوتوبيا جوهرا متشتتا ومبعثرا يتنمذج في أحلام والقصص الاجتماعية الغير مترابطة القائمة على فكرة اللا توافق مع الواقع[6] ، ولكن هذا المثالية يمكن أن تعد ايجابية لليوتوبيا القائمة على الحرية ومعارضة الايديولوجيا وسلطتها الغاشمة[7] .، ولعل الخصوصية الشعرية لليوتوبيا التي تشكلت في نصوص إبراهيم الخياط أبعدته عن فكرة الاستنساخ وإعادة التجربة لكون عالم إبراهيم

---

[3] - ينظر من النص إلى الفعل ، 299-321 ، و الهرمينوطيقية المصطلح والمفهوم ، 150-151 ، و الوجود والزمان والسرد فلسفة بول ريكور ، ترجمة سعيد الغانمي ، 31-55 ،محاضرات في الايديولوجيا واليوتوبيا ، بول ريكور ، ترجمة فلاح رحيم ، وماورائية التأويل الغربي ، د. محمود خليف خضير: 77

[4] . ثنائية المكان .الاغتراب ، في أدب الرواقصصي ، يحي الطاهر عبدالله ، محمد ذنون ،125 . 128 ، ومفاتيح اصطلاحية جديدة : 717 . 721 .

[5] . لأرين ، جورج ، الايدولوجيا والهوية الثقافية ، الحداثة وحضور العالم الثالث ، 56 . 57 .

[6] . ينظر محاضرات في الايديولوجيا واليوتوبيا : 361 . 365 .

[7] . ينظر المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة : 957 . 958 .

الخياط اليوتوبية عالما شعريا خياليا لا وجود له إلا في أحلامه الشعرية التي بحثت عن الواقع المثالي والخيالي الذي يحقق الأمل والمستقبل الزاهي المحمل بالنزعة التفاؤلية به ففي قصيدة (جمهورية البرتقال) يقول إبراهيم الخياط:

بين الأسى
واستدارة النهر الذبيح
كانت خطاي
تنبئ بالجفاف
وتقرأ سورة الماء المدمى
ايامئذ
انتكس القلب مرة
وانتكس النهر مرات
فلم يبق لقلبي سوى ظل أنثى
ولم يبق لنهرنا الشقي
سوى حثالة الأهل المتسربين
ومثل كل مرة

الافتتاحية اليوتوبية لهذا المقطع تقيم علاقة محايثة مع عنوان القصيدة جمهورية البرتقال التي تشي بحضور مكاني مؤدلج لمدينة ديالى التي اتصفت ببساتين البرتقال فتحويلها إلى امبرطورية يوتوبية تتكئ على حضور البرتقال ومكانه الحقيقي وما يستدعيه إلى ذاكرة النص المتخيل من حضور مكان الطفولة الباشلاري فحميمية مكان الطفولة أثثه على أساس يوتوبيا تناقض الواقع أو الأسى الذي تعاني منه هذه المدينة في الوقت الحاضر فهي مكبلة بإحساس الغربة التي تعاني منها أنا الشاعر فبين المتخيل اليوتوبي لجمهورية إبراهيم الخياط وواقعها الحاضر المحاصر بالهم والبأس والضياع وعملية الهجرة المستمرة أو المتسربة منها ،فعلاقة الغربة والاغتراب النفسي الذي مورس في الواقع السياسي والعنف على أهلها هذه المحافظة كان بمثابة باعثا وانبعاثا لحزن دائم. فظل أو ذاكرة هذه المدينة تمثل ظل أنثى لما يتجلى به من حنان وحب وتضحية لامتناهية فالتناغم بين ظل الأنثى والجمهورية اليوتوبية يكشف عن الوضع السياسي المؤدلج الذي روض كل مفاهيم السلام والتعايش إلى عنف دائم حاول أن يغيبها عند أهلها ماديا ومعنويا في قوله :

كانت المدينة تسورني بالتماعاتها
وتأمرني بالبكاء
. وأنا المجبول دمعا .
إذن كيف أوهمونا أن للمدن ذاكرة ؟
يا مدينة الباعة الصغار

أخاف على زجاجة روحي
أربعون صيفا
ولم تهشمها دورة المعارك
ولا غزو خائنات العيون
لان روحي ماء النار
يا مدينة الحصار

إن التنقيب في ماضي هذه المدينة يستنطق أنظمة السلطة القائمة التي حولت حاضرها إلى بكاء وعويل دائم، إذ يشمل التعارض والتضاد بين الواقع والماضي أو الذاكرة التي توصف هذا المدينة اليوتوبيا بوصفها إمكانية مفتوحة تؤمن طريق التبصر و الأمل في تغيير الواقع ، حيث إن حضورها في ذاكرة الشاعر يجسد زجاجة شفافة يوتوبية تعمل على تكوين بديل يبعد أنا الشاعر عن الواقع والمألوف الان لهذه المدينة فالانقلاب أو البديل اليوتوبي يتحد كل الحصار النفسي والمعنوي والمادي الذي فُرض على هذه المدينة الذي شوهته وكشفته يوتوبيا المتخيل الشعري بوصفها تخريبا للإيديولوجية السياسة معارضة غائيتها التوحيدية أو الانتظام الذي يقوم على أساس العنف السلطوي ، فتهميش المدينة وساكنيها من خلال التخريب الانطولوجي وتغيب بواعث وجودها الذي يرتبط بساكنيها الذين قد هجروها، إذ يقول الشاعر:

جف القلب
جف النهر
فما عاد القلب كبيرا
ولا عاد النهر عظيما
والذي كانت تزفه النوارس
دهرا
هجرته الان حتى الضفادع
فمثل القلب أقفر
ومثل البعض خان الأسرار
يا بلدة الغار
اكتوي وجدا
وانثر على النهر حبات قلبي
فللخائبين ظمأ واحد
وشاطئ واحد
يغسله حزن الأشجار
يا بقية الدار.[8]

[8] . جمهورية البرتقال : 25 . 26 .

يتجلى في هذا المقطع الأخير بعدا طوباويا يستدعى إلى ذاكرة المتلقي فكرة الأطلال في الشعر الجاهلي .فالجفاف الذي يتخذ ديناميكية تشاؤمية ومأساوية وضعت واقع هذه المدينة المحاصرة في أنماط من الجفاف فجفاف القلب والنهر وهجرت ساكنيها تفرض محددات شعورية وعاطفية فالحب والسلم والتعايش والخير في هذه الجمهورية قد تلاشى، وانتهت أحلامها عن طريق تجريدها من إنسانيتها وتحويلها إلى بقايا ديار .فالعلاقة التي تقام بين ذاكرة المدينة وحاضرها تدجنها السلطة عن طريق العنف الثقافي والمعرفي والجسدي لصالح إستراتيجية السلطة التي مارست دورا في تهميش الحياة في هذه المدينة فالايدولوجيا تغلبت على يوتوبيا الجمهورية التي أراد الشاعر أن يقيمها في متخيله الشعري بوصفها مدينة أحلامه المرجئة وغير مكتملة الحضور فبحضورها اليوتوبي يعد بمثابة إدانة للسلطة القائمة وعبثية الموت التي حولت المدينة إلى مدينة أشباح .

وخلاصة مما تقدم في هذا البحث فإن المجال العام للصراع بين الايديولوجية واليوتوبيا ينطلق من رؤية متنافرة ومتواترة بين ما تطمح اليه مخيلة الشاعر في البحث عن جمهورية تتماثل مع جمهورية افلاطون التي تقوم على المحبة والسلام والعيش الكريم ، فنموذج الرفض الذي قدمته جمهورية افلاطون بوصفها رفضا للواقع والاستلام للدكتاتورية التي قتلت كل معرفة وعلم وفلسفة او حوار العقل والتي تمثلت في محاكمة واعدام سقراط ، والتي تم استعارتها في هذه القصيدة لتكون جمهورية ابراهيم الخياط جمهورية افلاطونية تبحث عن مدينة واقعية عرفت ووسمت بأنها جمهورية البرتقال وهو وصف يعبر عن انها مدينة مسالمة تبحث عن الحياة عن طريق الزراعة وما تمثله لفظة البرتقال من اشارة الى أنها كانت مدينة تزرع فيها الحياة لأنها ترتكز على ثروة من توفير الطعام والخير والتي عملت السلطة بأيديولوجيتها وعنفها الى تهجير اهلها وتغريبهم وتقيدهم عن طريق تدجينها واحاطتها بسورا نفسيا أو ماديا عن طريق تخريبها اجتماعيا وثقافيا .

المصادر والمراجع

* **الايديولوجيا والمعرفة ، بكري خليل ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2002 ، القاهرة .**
* **الايديولوجيا والهوية الثقتافية ، الحداثة وحضورها في العالم الثالث ، جورج لارين ، ترجمة فريال حسن خليفة ، مكتبة مدبولي ، ط1 ، 2002 ، القاهرة .**
* **ثنائية المكان .الاغتراب ، في أدب الرواقصصي ، يحي الطاهر عبدالله ، محمد ذنون الصائغ ، دائرة الثقافة والإعلان، ط1 ، 2004 ، الشارقة.**
* **جمهورية البرتقال ، ابراهيم الخياط ، دار الشؤون الثقافية ، ط1 ، 2007 .**
* **عصر الايديولوجيا ، هنري ايكن ، ترجمة محي الدين صبحي ، منشورات وزارة الثقافة ، 1917 ، دمشق .**

* ما ورائية التأويل الغربي د. محمود خليف خضير الحياني ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، منشورات ضفاف، لبنان ،دار الأمان، الرباط ، ط1 ، 2013
* المعجم الشامل لمصطلحات لفلسفية ، عبد المنعم الحفني ، مكتبة مدبولي،ط3، 2000 ، القاهرة.
* مفاتيح اصطلاحية جديدة ، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع ، طوني بينيت ، لورانس غروسبيرغ ، ميغان موريس ، ترجمة سعيد الغانمي ، المنظمة العربية للترجمة ، 2010 ، بيروت .
* من النص إلى الفعل ، بول ريكور ، ترجمة محمد برادة ، حسان بوراقية،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،ط1 ،2001 ،القاهرة.
* محاضرات في الايديولوجيا واليوتوبيا ، بول ريكور ، ترجمة فلاح رحيم ، دار الكتاب المتحدة ، ط1 ، 2002 ، بيروت .
* الوجود والزمان والسرد ، فلسفة بول ريكور، تحرير ديفيد وورد ، ترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 1999 ، الدار البيضاء .

ـ المجلات والدوريات:
* الهرمينوطيقا المصطلح والمفهوم ، منى طلبة،مجلة أوراق فلسفية ، القاهرة ،،ع10. www. 4shared.com .